دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	سلطة النص الديني على العمارة الإسلامية
المصدر:	مجلة الحكمة
الناشر:	مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع
المؤلف الرئيسي:	عبدالله، نور الدين
المجلد/العدد:	ع4
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2010
الشهر:	ديسمبر
الصفحات:	237 - 246
رقم MD:	652509
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	العمارة الإسلامية، المدن الإسلامية، النصوص الشرعية، الهندسة المعمارية، التصميم المعماري، تحصين المدن
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/652509

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سلطة النص الديني على العمارة الإسلامية

نور الدين بن عبد الله
كلية الآداب واللغات
والعلوم الإنسانية والاجتماعية
الجلفة

مقدمة

العمارة نتاج تفاعل الإنسان بتقاليده وإمكاناته مع ظروف البيئة المحيطة به، فكما خضع الإنسان لسنة النشوء والارتقاء في أفكاره ومفاهيمه وأذواقه، متأثرا بالبيئة الطبيعية وبالشعور الديني والتقاليد، والوسط الاجتماعي، فكذلك تطور إنتاجه الفني، واختلفت مظاهره وخصائصه، باختلاف الزمان والمكان، إلا أنه ورغم الاختلاف، فأوجه الشبه تظل كبيرة بين فن وآخر في عصر من العصور، ذلك لأن التأثيرات الفنية تتسرب بسهولة عبر الحدود الفاصلة بين البلدان والشعوب، بسبب تنقل الأفراد، أو نتيجة الاحتكاك الدائم وتبادل الخبرات والمعارف.

وعلى هذا الأساس كانت العمارة، من بين الفنون الأكثر تأثرا بالإنسان وبيئته، وقد تدخلت عدة عوامل لإعطاء الشكل النهائي للعمائر الإسلامية، فالمستقرئ للعمارة الإسلامية، يجدها كونا عامرا بالمعاني الحقيقية لعمارة الأرض، وذلك من منظور رؤية الإسلام للعمارة، حيث أرادها الشارع الحكيم، أن تحافظ على الكليات الأساسية*(مقاصد الشريعة)، فقد حثت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، على عمارة تخدم البشرية، دون أن يخدش بديع صنع الله في الطبيعة، هذه المعاني وغيرها تجلت في جميع نماذج العمارة الإسلامية، مراعية في ذلك خصوصية المكان والزمان، ولهذا جاءت العمارة تجسيدا لمبادئ الدين الإسلامي، أينما حل.

وعلى هذا الأساس، فقد اعتبر الدين من بين أهم العوامل التي ساهمت في الشكل النهائي للعمارة الإسلامية، فما هي أهم النصوص الشرعية التي وجهت المعماري المسلم، أثناء عملية الإنشاء وما هي أهم المعالجات المعمارية، التي جاءت نتيجة الامتثال لتلك النصوص الدينية؟.

أ- مفهوم العمران الإسلامي

لقد تعرض علماء الإسلام الى ظاهرة العمران، وعرفوها بأسماء عديدة، فذكرها ابن خلدون على أنها الاجتماع البشري، وأنها مرتبطة بفطرة الإنسان، فقال:(..**الإنسان مدني بالطبع، أي لابد له من الاجتماع، الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران..ثم إن**

هذا الاجتماع، إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم).[1]

كما تعرض لها الفارابي عبر مفهوم المدينة، وصنفها على أساس قيمها الأخلاقية، حيث قال: **(فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها، التعاون على الأشياء، التي تنال بها السعادة...والمدينة الفاضلة تشبه البدن الصحيح، الذي تتعاون أعضاؤه كلها، على تتميم حياة الحيوان، وعلى حفظها عليه)**[2].

أما عند الفقهاء، أمثال أبي حنيفة، فقد كانت تعتبر المكان الذي تقام فيه الحدود، وتؤدى فيه صلاة الجمعة، ولذلك فهي ترتبط بمسألة العدالة والقضاء، والشعائر الدينية الجماعية، وهذه التعاريف كلها، تشير الى اعتبار الظاهرة العمرانية البشرية، لا تميز حضارة دون أخرى، بل يشترك فيها الإسلام مع غيره.فمن هنا نتساءل عن حقيقة العمران الإسلامي، ومدى صحة التسمية، فالمعروف انه ليست هناك أدلة قاطعة، تفصل لنا نموذج المدينة الإسلامية، وكلما هنالك هو إشارات متفرقة، مثل النهي عن الإطلاع على بيوت الغير، وتحديد الطريق، والتفريق بين الجنسين، أو اجتهادات ظرفية.

ولعل أقرب تعريف للعمران الإسلامي، هو ذلك المحيط الذي يستجيب للمقاصد العامة للشريعة الإسلامية، وليست المدينة القديمة في بلداننا الإسلامية، سوى صورة محددة في الزمان والمكان لكيفية الاستجابة لتلك المقاصد، مما يؤهلها الى حد ما لاستنباط الحلول، لمقتضيات الحياة المدنية المعاصرة في ظل الشريعة الإسلامية.[3]

ب- مفهوم المدينة الإسلامية

ورد عند ابن منظور في اللسان، أن المدينة من الفعل **مدن**(بالفتح)، فيقال مدن بالمكان، أي أقام فيه والمدينة هي الحصن يبنى في أصطمة الأرض، وكل أرض يبنى بها حصن في أصطمتها فهي مدينة[4] .

وكلمة مدينة ترجع أصلا الى كلمة(دين)، وأن لهذه الكلمة بهذا المعنى أصلا في الآرامية والعربية، وعرفت المدينة عند الأكاديين والأشوريين بالدين، أي(القانون)كما أن الديان يقصد بها في اللغة الآرامية والعبرية(القاضي)، وإضافة الى ذلك فإن مصدرها في الآرامية(مدينتا)، وتعني القضاء، وتوافق هذه التفسيرات ما ورد في القرآن الكريم، من أن كل المواضع التي أطلق عليها لفظ مدينة، كان عليها حكام وملوك، وجاء تمييز المدينة عن القرية في القرآن الكريم، على أساس سمة التقاضي، وقد أورد البخاري وابن حنبل، حديثا عن جابر بن عبد الله:أن الرسول ﷺ قال:(**يوم القيامة يحشر العباد-أو قال الناس- حفاة عراة، عزلا ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قرب، أنا الملك أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة، ولا لأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقصها منه...**)[5].كما أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه[6].

وحسب الفارابي، فالمدينة تندرج، تحت ما يسمى بالاجتماع الكامل، حيث أن الإنسان مفطور على أنه محتاج في قوامه، وفي أن يبلغ أفضل كمالاته، الى أشياء كثيرة، يمكنه أن يقوم بها كلها هو وحده، بل يحتاج الى قوم، يقوم له كل واحد منهم، بشيء مما يحتاج إليه، ولهذا فهو

يقسم المدينة، الى فاضلة، تتحقق فيها سعادة الناس، ومدينة جاهلة، تحقق التعاسة، لأهلها.[7]

ويدعم هذا الكلام، إبن خلدون بقوله: (**الإنسان مدني بالطبع، أي لابد له من الاجتماع، الذي هو المدينة، وهو معنى العمران، وبيانه أن الله، سبحانه وتعالى، خلق الإنسان، وركبه على صورة لا يصح حياتها، وبقاؤها، إلا بالغذاء، وهداه الى التماسه، بفطرته، وبما ركب فيه، من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر، قاصرة على تحصيل كل حاجاته...**)[8].

والمدينة، هي مسكننا الطبيعي، حيث تكونت بشكل عضوي على غرار القرية، متنامية حول ساحة، أو شارع رئيسي، بشكل بطيء، يستجيب لحاجات الأجساد، والنفوس[9].

كما تدرج المدن، في عملية إعمار الكون، والاستخلاف في الأرض، وقد ارتبط هذا كله، بالهدف الأسمى من الخلق، وهو عبادة الله عليها، فقد جاءت الآيات، والأحاديث النبوية، دالة على ذلك، حيث قال تعالى في سورة الملك: ﴿**قل هو الذي ذرأكم في الأرض، واليه تحشرون**﴾. وقوله أيضا: ﴿**والأرض مددناها، والقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها، من كل شيء موزون، وجعلنا لكم فيها معايش، ومن لستم له برازقين**﴾، ومن هذا المنظور، فقد حث الإسلام، على تعمير الأرض وإصلاحها، فجاءت هذه النظرة للتعمير، حافزا للتسابق في تعمير هاته الأرض وفق المفهوم الإسلامي؛ وفي أجواء هاته القيم السامية، نشأة المدينة الإسلامية، التي حوت هذا الاجتماع، الموثق بعرى التآخي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مصداقا لقوله تعالى من سورة التوبة: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات، بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله، ورسوله، أولائك سيرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم**﴾؛ وبهذه الروح، نال العمران في الفكر الإسلامي القسط الوافر.

فالمدينة هي شكل من أشكال التجمعات البشرية، يتسم بالكثافة، والتنظيم، والتعقيدلو هذا الحجم من التجمع يتولد عنه تعدد وتنوع الحاجات والوظائف، والنشاطات، وقد احتل هذا الموضوع جزءا أساسيا في النظرية الخلدونية للعمران حيث صنف العمران إلى عمران بدوي وعمران حضري.أما الفارابي فيستعمل مفهوم الاجتماع الناقص والاجتماع الكامل، فالكامل للدلالة على تجمع المدن والأمم أما الناقص فللدلالة على تجمع القرى[10]؛ وفي هذا الصدد يقول: (**...والمجتمعات الكاملة، ثلاث مراتب، فأرقاها مرتبة، اجتماع العالم كله في دولة واحدة، وتحت سيطرة حكومة واحدة، وأقل منها كما لا اجتماع أمة في جزء من المعمورة، تحت سيطرة حكومة مستقلة، وأقلها جميعا في الكمال، اجتماع أهل مدينة في جزء من الأمة، تحت سلطة رئيس، والمجتمعات الناقصة ثلاث مراتب كذلك، فأقلها نقصا وأدناها الى المجتمعات الكاملة، اجتماع أهل القرية، واجتماع أهل المحلة، وأكثر منها نقصا، اجتماع أهل السكة، وهي جزء من المحلة، وأحطها جميعا منزلة، اجتماع أفراد أسرة في منزل...**)[11].

والمستخلص من هذا الكلام أن نموذج الاجتماع الكامل، هو النموذج الإسلامي القائم على مبدأ الخلافة الواحدة، المحققة لأمر الله، على منهاج الخلافة الراشدة، وكل هذا لخدمة الإنسان، فالمدينة الفاضلة في رأي الفارابي، هي التي تتحقق فيها سعادة الأفراد، على أكمل وجه، ولا يكون ذلك، إلا إذا تعاون أفرادها على الأمور التي تنال بها السعادة.

وفي هـذا يقـول: (...**فالمدينـة التي يقصـد بالاجتماع فيهـا، التعاون على الأشـياء، التـي تنال بها السعادة...والمدينة الفاضلة تشبه البدن الصحيح، الذي تتعاون أعضاؤه كلها، على تتميم حياة الحيوان، وعلى حفظها عليه**...)[12]، فكل هاته الشروط التي وضعها الفارابي لتحقيق سعادة الإنسان، اختصرها الديـن الحنيف في قول الرسـول ﷺ:(**مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، كمثل الجسـد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**)، وهو المبدأ الذي قام عليه الفكر العمراني في الإسلام، ذلك أن الغاية من الاجتماع هو عمارة الأرض، وتحقيق الاستخلاف الحقيقي فيها.

و إذا كان الاجتـماع يحتـاج إلى مـكان، فكلاهما يحتاج إلى عمران؛ والعمران لا يسـتتب إلا بالنظـام، والأمن، ولهذا كان من الـضروري، أن يحتكم الاجتماع الناجع الى راع واحد حكيم، سـماه الفـارابي، رئيس المدينـة الفاضلة، والأمـة الفاضلة، ورئيس المعمورة مـن الأرض، وقد حدد له خصالا، يجب عليه أن يسـتوفيها، منها:أن يكون **كامل الخلقة، وجيد الفطنة والذكاء، ومحبا للعلم والتعلم**، ثم أن يكون **محبا للصدق وأهله، مبغضا للكذب وأهله**.[13]

وقد جاءت المدينة المنورة على عهد الرسول ﷺ، والخلفاء الراشدون، من بعده، تجسيد لهذا الفكر العمراني، وكانت بحق نموذج المدينة الفاضلة، التي ابتغاها الإسلام، وعبر عنها الفارابي، في كتاباته، ثم تطورت المدينة واتسعت، مع المحافظة على الخطة الأساسية، في إقامة المدينة الأولى في الإسلام.

إلا أن اتسـاع المدن في العالم الإسلامي، لم ينتج عن تخطيط مسبق، بالمعنى المستخدم اليوم، كـما لم تـشرف على هذا الاتسـاع، سـلطة مركزيـة، ولكن الذي حـدث، هو تراكـم لتصرفات السـكان، بمعنى أن نمو المدن، وتشـكل البيئة التقليدية، نتج عن قرارات السكان، وفي العادة هي قرارات، ذات مستوى صغير، كبناء بيت في مزرعة خاصة، أو إحياء أرض مجاورة وهكذا، إلا أن هذا النمو لم يكن عشوائيا وفوضويا، بل كان مبنيا على مبادئ معينة[14].

ولقـد أثـر عن المسـلمين الأوائل، حين كانـوا يفتحون البلـدان، أنهم كانوا يسـكنون مع أهلها، ويشـاركونهم في الأسـواق، والأماكـن العامة، غير أنهم كانوا حريصـين، على إعطائها الصفة الدينية، بأن يوجدوا فيها أماكن للعبادة (المساجد)، كما عملوا على إقامة العدل، وإزالة مظاهر الشرك والرذائل.[15]

وفي خضم دراسة المدينة الإسلامية، ظهرت لنا نزعتان أساسيتان[16]:

1. النزعـة الأولى:أنصارها أساسـا من المدرسـة الاسـتشراقية القديمـة، الذين لم يروا في المدينة(الذين اختلفوا في تسميتهم لها، بين إسلامية وعربية وشرقية)، إلا سككها الضيقة، وتعدد أزقتها وحاراتها الملتوية كالتواء المتاهة، ومسـاكنها المنغلقة على نفسـها، ولم يروا في المشـهد الحضري لهذه المدن، إلا مشـهدا مضطربا فوضويا غير منتظم، تتداخل فيه الكتل السكنية، القليلة التهوية، بسبب نوافذ دورها المطلة على الداخل، فأصحاب هذه النزعة لم يروا في المدينة سوى السلبيات، ولم يحاولوا فهم المجتمع وقوانينه(الدينية والاجتماعية..)، فمن دونها مجتمعة، لا يمكن فهم المدينة الإسلامية وعمارتها.
2. النزعة الثانية: وهي أكثر موضوعية، حيث ترى أن المدينة الإسلامية ليست مجرد تجمع فوضوي للأحياء السكنية، بل إنها تنظيم للمجال الحضري، يأخذ بعين الاعتبار، الرغبات

والحاجيات الحقيقية للسكان، ثم إن ما بدا للبعض، أنه غير مرتب لعله نمط من التنظيم، الذي يختلف عن التنظيم الهندسي، والذي له جمالياته الخاصة.

وتبلـور مصادر التراث الإسـلامي في عصوره المتعاقبة، ما انتهى إليه الفكر الإسـلامي في مجـال تخطيط المـدن، وتعكس المصادر العديدة التي كتبت عن تاريخ المدن وخططها، كثيرا من الحقائق التي توضح الى خد كبير التطور الفكري المتعلق بتخطيط وإنشاء المدن الإسلامية.

كـما تختلف المدن وتتنوع باختلاف وظائفها، وظروف إنشـائها ومواقعها، والمؤثرات التي تؤثر على نموها وتطورها.[17]

وقد حدد المنظرون للعمران الإسلامي، شروط إقامة المدن، وما يجب أن يتوفر فيها، وفي هذا يقول ابن خلدون... : (**اعلم أن المدن، قرار تتخذه الأمم...ولما كان ذلك القرار والمأوى، وجب أن يراعى فيه، دفع المضار، بالحماية من طوارقها، وجلب المنافع، وتسـهيل المرافق لها؛ فأما الحماية من المضار، فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار، وان يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة، إما على هضبة متوعرة، من الجبل، وإما باستدارة بحر، أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها...ومما يراعى في ذلك، للحماية من الآفات السماوية، طيب الهواء، للسلامة من الأمراض**)[18].والملاحظ من هذا الكلام، أن ابن خلدون، قد حدد أهم الشروط لسلامة المدن، والمتمثلة في مايلي:

1. توفر المدينة على المرافق الضرورية للسـكان، من بيـوت وغيرها، ذلك لأن المدن، هي نتيجة لترف، وتطور عمران إقليم ما.

2. منعـة المدينـة، من خـلال اختيار الموقـع المنيـع، لإقامتها(**هضبـة، جبـل**)، وإحاطتها بالأسوار، التي تزيد من منعتها واستعصائها على الغزاة

3. توفير المياه الصالحة، الكافية لسد حاجات الناس ودوابهم.

4. سلامة هوائها من كل ما يعكره، لضمان سلامة الأبدان، والعقول، ومنه سلامة المدن.

وفي هذا المجال، أورد المقريزي، أثناء حديثه، عن مدينة الفسطاط، فقال : (...وإذا دخلت مدينة، فرأيتها ضيقة الأزقة، مرتفعة البناء، فاهرب منها، لأنها موبوءة..)[19].

وصفوة القول فإن المدينة الإسلامية، هي التي تحقق السعادة لساكنيها، حيث يراعى فيها، الحفاظ على القيم الأساسية(الربانية، الإنسانية، البيئية).

ومما سـبق ذكره، نصل الى سـؤال جوهري، مضمونه ما هي أهم النصوص الشرعية التي ساهمت في تشكيل العمارة الإسلامية؟.

ج . دور النص الشرعي في شكل العمارة الإسلامية:

تلعـب التعاليـم الدينيـة دورا مهـما في توجيـه حياة الإنسـان، ويظهر ذلك جليا في شـكل الفنـون، ذلـك لأن البعض يذهب الى أن الدين هو أصل نشـأة الفنـون، ومن هذا فقد اصطبغ الفن الإسلامي بسمات الدين، ذلك لأن الفنان المسلم عليه أن يلتزم بتعاليم الدين الإسلامي، إلا أن التزام الفنان المسلم بالمعتقد الديني لم يسلبه شخصيته، ولم يأسره في شكل جامد متحجر، كما أنه لم يمنعه التطور[20].

وبفعل امتثال الفنان المسلم للتعاليم الدينية، اتجه الى عالم الزخرفة المجردة، فقد عبر من خلال الزخرفة عن الفكرة المطلقة التي كانت محور الكون، وقد لجأ لتكرار العنصر الزخرفي (الأرابيسك) تكرارا بلا كلل ولا ملل، ليعكس التسبيح وما نردده لفظا وانفعالا، ونحن نسبح باسم الله في الذكر مئات المرات ﴿**رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله**﴾[21].

ومن هذا المنطلق جاءت العمارة الإسلامية تجسيدا للفكر السائد، الذي نصت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، سعيا منها لتنظيم حياة المسلمين وشؤونهم، ولهذا عمل الفقهاء على تنظيم الجانب المعماري للمسلمين، فنشأ بذلك فقه العمارة الإسلامية الذي اتخذ من حديث النبي ﷺ: (**لا ضرر ولا ضرار**) قاعدة له وقد ترك النص الشرعي تأثير بالغا، على شكل العمارة الإسلامية، يمكن تلخيصه في مايلي:

1) **شكل المباني**

لقد بنيت الوحدات في المدينة الإسلامية، وفق الشكل المتضام[22]، فجاءت متقاربة بعضها من بعض، إذ لا يمكن التمييز بين بيوتها إلا من خلال الأسطح، وقد جسد هذا الشكل قول الرسول ﷺ: (**مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**)، وقوله عليه أفضل الصلاة والسلام: (**المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضا**).

فالأحاديث السابقة تدل على ضرورة التكافل، والتعاون بين المسلمين، ولهذا انعكس هذا المبدأ، على الحياة الاجتماعية للأهالي، والتي تتميز بالتعاون في كل مجالات الحياة، وعليه جاء شكل النسيج المعماري يجسد هاته المعاني، حتى انه لا يمكن التفريق بين بيت الفقير والغني، ذلك لأن الواجهات في العمارة الإسلامية، جاءت صماء لا زخرفة فيها.

كما يظهر تأثير العامل الديني في مركز المدينة، حيث اعتبرت الجوامع مركزا للمدينة الإسلامية، وعلى هذا الأساس، كانت كل الطرقات والأزقة تؤدي إليه، وذلك لتسهيل وصول الناس الى المسجد، كما لعب المسجد الجامع داخل المدينة دورا أساسيا، فكان مركز لبحث الشؤون السياسية، والاجتماعية، والدينية والتربوية، وعلى هذا الأساس عد المسجد الجامع، النواة الأساسية في تخطيط المدينة الإسلامية، وذلك اعتبارا مما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم، عندما دخل المدينة المنورة[23].

2) **تخطيط الدور**

لقد ارتبط تصميم المسكن بالتعاليم الإسلامية التي تنظم حياة الأسرة، وأسلوب معيشتها، ومن ذلك حرمة المسكن التي تعبر عن حرمة الإنسان، فلهذا حرم الشارع الحكيم كشف عورات البيوت.

حيث يقول الله تعالى في آداب الزيارة من سورة النور﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا**

غير بيوتكم، حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون﴾ وانطلاقا من هاته التعاليم الدينية، اتخذ المعماري المسلم، عدة إجراءات كان من أهمها:

ب - 1 المدخل المنكسر:

لعل أهم تأثير لأحكام البناء على المداخل، يظهر في **تنكيبها**[24]. وهو ما يعطي المدخل المنكسر، ويعرف كذلك باسم **الباشورة**. حيث يقال أن أصوله قديمة، ذلك أن أقدم نموذج له يوجد في شونة الزبيب، ويرجع الى العهد الفرعوني، حيث يؤرخ بين سنتي 2625 – 1788 قبل الميلاد.[25]

وعموما فمدخل الدار يمثل، نقطة الانتقال بين عالمين منفصلين (الخارج والداخل)، ولذلك فقد حظيت المداخل باهتمام كبير في تصميمها، فكان المدخل المنكسر، هو الحل بحيث لا يسمح برؤية ما بالداخل كما أن الانكسار يكون حسب مستوى معيشة العائلة، مضاعفا أو بسيطا[26].

وعلى هذا الأساس وضع الفقهاء، ضوابط لفتح الأبواب الخارجية، تهدف الى منع الإطلال على ما بداخل بيوت الجيران، وقد صنفوا المسألة في ثلاث حالات حسب وضع الباب، في الشارع النافذ الواسع والشارع النافذ غير الواسع وفي غير النافذ، ومن ذلك ما أورده أحد الفقهاء، أنه إذا كان الزقاق سالكا نافذا يمكن للمالك أن يفتح ما شاء من الأبواب، لأن الباب معرض باستمرار للمارة، أما في حالة الزقاق الضيق فلا يجوز للجار أن يفتح قبالة جاره، ولهذا قال العديد من الفقهاء بضرورة تنكيب المدخل.

كما يظهر لنا تأثير الدين في عمارة البيوت، وذلك من خلال وجود الصحن المركزي الذي يعد مركز البيت، فالصحن بهذا الشكل في العمارة الإسلامية، يمثل ضرورة وحدة المسلمين، حول قائد واحد وإمام واحد، تستلهم منه الأمة منهاج حياتها العقائدية والدنيوية، وقد جسد هذا النموذج في المدينة الإسلامية، الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا الأساس جاء المسجد في قلب المدينة الإسلامية، وبهذا جاء الصحن في عمارة البيوت، العنصر الذي يعمل على جمع كل وحدات المسكن، كما يمثل نقطة التقاء الأرض بالسماء، وذلك من خلال تمكين ساكني المنزل من تأمل أجرام السماوات، فيعظم في نفوسهم الخالق، بعظمة مخلوقاته.

3). تحصين المدينة الإسلامية:

إن الحياة في فطرتها تقوم على ثنائيات متغالبة يدفع بعضها بعضاً، فالخير يدفع الشّر، والحق يغالب الباطل، والموت يصارع الحياة، وكذا الأمر بين الإسلام والكفر، والعدل والظلم، والإعمار والإفساد والحرية والاستعباد وهلم جرا. وصدق الله العظيم في قوله الحكيم: **﴿هَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**[27].

فلقد جاءت الآيةَ في سياق التعقيب على صراع نبي الله داود ممثل الخير وداعيته، مع «جالوت» زعيم الشر وحامل لوائه، كما يفهم من قوله سبحانه **﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ**

دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾، فقيام الملْك العدْل وامتلاك الحكمة والعلم، أمور ترتبط بشكل أو بآخر بقتال الظَلم ودفعه، وكأنه لا حكمة ولا علم ولا ملك، مع ترك الظالمين وظلمهم يعدون على المؤمنين، لأن في ذلك الترك إفساد في الأرض.

ومن ثم جاء التعقيب الإلهي، على قصة القتال الخاصة المحددة بين « **داوود عيه السلام وجالوت**» تعقيباً عاماً يكشف عن حقيقة هامة تقول: إن رفع الإفساد في الأرض، بغض النظر عن فاعله، لا يكون إلا بدفعه وقتاله وصرْعه، والتغلب عليه. وإن الدفع نفسه، وما قد يتلوه من علو الحق، ورفع للفساد، إنما هو فضل الله على العالمين.

إن آية « الدفع» هذه، تنتقل بنا من الخاص إلى العام، لتقرر سنة الله الكونية والحياتية، التي تنْظم العلاقات بين مكونات الحياة والكون، هذه العلاقات القائمة على المدافعة والمغالبة؛ وهي تسكن طرفي المعادلة التي نلخصها عادة بمعادلة (**الخير والشر**).

وجوهرها يقول: إنْ تخلّفت المدافعة، بسبب سكون الخير وأهله، عمّ الفساد والإفساد، ومَلَكَ وحكم واستغلظ واستعصى، وربما تألّه ونادى لنفسه بالربوبية، ومن ذلك جاء التأييد الإلهي بقول الله سبحانه: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾[28].

وقد عبرت فلسفة المدافعة في الفكر الإسلامي، عن الهاجس القديم للإنسان، وهو الأمن والأمان، فقال تعالى: ﴿**وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾، وفي دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿**رب اجعل هذا البلد آمنا**﴾، فمن هذا المبدأ، سن الشارع الحكيم لهذا الإنسان، أحقية التحصين وتوخي الحذر[29].

ولن يتحقق هذا، إلا بتوفير العناصر المساعدة له، كالجند ووسائل الحماية والدفاع؛ ولهذا دعت المصادر الفقهية، الى ضرورة إنشاء المباني الدفاعية، بل الأكثر من ذلك فقد صنفتها الفقهاء، [30] ضمن البناء الواجب، كونها تحفظ، المسلمين في أنفسهم وأموالهم، وهي من مقاصد الشريعة الإسلامية[31].

كما يدخل ذلك في إطار دعوة الله تعالى عباده المؤمنين، حسن الإعداد، للتمكين لدين الله في الأرض، مصداقا لقوله تعالى: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة...**﴾، فالملاحظ في هذه الآية أن لفظة القوة جاءت نكرة، وهو ما يفيد التعدد، فكان من ذلك القوة في العقيدة، والقوة البدنية والعلمية والاقتصادية وغيرها، وفي هذا المجال قال صلى الله عليه وسلم: ﴿**المؤمن القوي خير عند الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير**﴾. فمن هذا المنطلق، كانت العناصر الدفاعية، من أولى أولويات المعماري المسلم، حيث ظهر الخندق، كأول حرم للمدينة الإسلامية، ثم تلته الأسوار والأبراج، وذلك حسب موقع المدينة، وكان من ذلك شكل معمار المدن، دالا على استقرارها السياسي والاقتصادي أو العكس، فالمدينة التي تكثر فيها العناصر الدفاعية، تدلنا عن حالة اللاستقرار، أما التي تكثر فيها العمائر الفاخرة (**القصور والرياض**) فهي مدينة، آمنة على قوتها، وأهلها.

خاتمة

وصفـوة القـول فقـد كان للنـص الديني سـطوة، على شـكل المعمار الإسـلامي، فجاءت بذلك العمارة الإسـلامية، تجسـيدا للنصوص الشرعية على أرض الواقع، فمن خلال الحديث النبوي(**لا ضرر ولا ضرار**)، كانت فقه العمارة الإسلامية، وبتأثير من هاته القاعدة، قاعدة منع كشـف عورات المسلمين، استلهم تخطيط البيوت الإسـلامية، وامتثالا لقوله تعالى:﴿**وأعدوا لهم ما اسـتطعتم من قوة...**﴾ جاءت العمائر الدفاعية في المدن الإسـلامية، وعلى أسـاس ديني بحت، صنف الفقهاء المباني الى مايلي[32]:

أ- البنـاء الواجب: ومـن ذلك بنـاء دور العبادة، وبناء وسـائل تحصين المدن(الأسـوار، الخنادق....).

ب- البناء المندوب:كبناء الأسواق والمآذن.

ج- البناء المباح:ومنه بناء الدور والمساكن

د- البناء المحظور:كبناء دور المنكرات(المخمرات، البناء على المقابر....)

الـهوامـش

* الدين، النفس، العرض، المال.....

1. تاريخ إبن خلدون، طبعة مصححة، أعتني بها : أبو صيب الكرمي، بيت الأفكار، الأردن، ب.ت.، ص 27.

2. أبـو نـصر الفارابي، أراء أهل المدينـة الفاضلة، قدم له وعلق عليـه، الدكتور ألبير نصري نـادر، دار المشرق المطبعة الكاثوليكية بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ب ت، ص 117.

3. مصطفى بن حموش، المدينة والسلطة في الإسلام، نموذج الجزائر في العهد العثماني، دار البشائر للطباعة والتوزيع، ط01، 1420هـ/ 1999م، ص 18.

4. ابن منظور، لسان العرب، مج08، ص 233.

5. محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، دار الآفاق العربية القاهرة، ط01، 1999، ص17.

6. ابن خلدون، المصدر السابق، ص 175.

7. أبـو نـصر الفارابي، أراء أهل المدينـة الفاضلة، قدم له وعلق عليـه، الدكتور ألبير نصري نـادر، دار المشرق المطبعة الكاثوليكية بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ب ت، ص 118.

8. إبن خلدون، العبر، وديوان...المصدر السابق، ص27.

9. جـان اونيموس، الإنسـان والمدينـة، تعريب، كمال خوري، منشـورات وزارة الثقافة والإرشـاد القومي، دمشـق 1977، ص5.

10. إبراهيم بن يوسف، « إشكالية العمران والمشروع الإسلامي»، مطبعة أبو داود، الجزائر 1992، ص6.

11. عـلي عبد الواحد وافي، المدينة الفاضلة للفارابي، دار علـم الكتب للطبع والنشر، القاهرة، 1393هـ/ 1973م، ص26.

12. أبو نصر الفارابي، ص117.

13. علي عبد الواحد وافي، نفسه، ص127.

14. جميل عبد القادر أكبر، عمارة الأرض في الإسلام، مقارنة الشريعة، بأنظمة العمران الوضعية، مؤسسة الرسالة للطباعة، ط02، بيروت1995، ص 159.

15. مصطفى بن حموش، المرجع السابق، ص 19.

16. خالد عزب، العمارة الإسلامية، من الصين الى الأندلس، دار الصدى للطباعة والنشر، دبي الإمارات العربية، 2010، ص 15.

17. محمد عبد الستار عثمان، المدينة..ص 29.

18. ابن خلدون، التاريخ...المصدر السابق، ص 175.

19. المقريزي، الخطط، مكتبة الآداب القاهرة، الجزء الأول، ب ت، ص 144.

20. محمود إبراهيم حسين، الأنا الفاعلة في الفن والعمارة الإسلامية، (دراسة في الفكر)، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد52، جامعة الكويت1998، ص 210.

21. محمود إبراهيم حسين، نفسه، ص 213.

22. يحي وزيري، العمارة الإسلامية والبيئة، الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي، عالم المعرفة، مطابع السياسة الكويت، العدد 304، يونيو2004، ص 95.

23. محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية....ص 234.

24. هو عدم مواجهة أبواب المنازل، بعضها ببعض، حتى لا يكشف الخارج والداخل إليها، وقد نظمت أحكام الفقه الإسلامي، عملية التنكيب وفي أي المواضيع من شوارع المدينة تتم، وهي لازمة بصفة خاصة في الشوارع الضيقة. (راجع خالد عزب:فقه العمارة الإسلامية).

25. فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الأول 1970، ص 191.

26. مصطفى بن حموش، جوهر التمدن الإسلامي، دراسات في فقه العمران، دار قابس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 2006، ص 92.

27. البقرة آية 251.

28. الحج آية 41.

29. خالد فائق العبيدي، المنظار الهندسي للقرآن الكريم، دار المسيرة للنشر عمان، الطبعة الثانية، 2005، ص 144.

30. سعد عبد الكريم شهاب، أنماط العمارة التقليدية الباقية في صحراء مصر الغربية، دراسة تحليلية مقارنة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط01، الإسكندرية مصر 2009، ص117.

31. علي حملاوي، نماذج من قصور منطقة الأغواط، دراسة تاريخية أثرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية الجزائر2006، ص267.

32. خالد عزب، العمارة الإسلامية، من الصين الى الأندلس، دار الصدى للصحافة والنشر، دبي 2010، ص 16.